

ريتشارد رورتي والعقل المرآوي

Richard Rorty and the Mirrored Mind

ط.ب فاطمة خديم*

أ.د العربي ميلود*

تاريخ النشر: 2021 / 03 / 30	تاريخ القبول: 2020 / 10 / 10	تاريخ الإرسال: 2020/08/30
-----------------------------	------------------------------	---------------------------

الملخص:

سنتحدث في هذا المقال عن نظرة ريتشارد رورتي إلى نظرية المعرفة والتي يمكن تلخيصها في النزعة التفكيكية للتقليد الفلسفي، انطلاقا من ارتباط الفكر الفلسفي بنظرية المعرفة أصبح من الصعب تخيل الفلسفة بعيدا عن الإستمولوجيا هذه الصورة التي قدمها كانط للعقل الغربي فلا مكان للفلسفة من دون نظرية المعرفة هذا ما فرضته الفلسفات النسقية منذ أفلاطون إلى غاية بروز الفلسفات (الديكارتية، الكانطية والوضعية)، تشير نظرية المعرفة إلى وجود جوهر للإنسان فنظرية المعرفة التي أسستها هذه الفلسفات تدعي بأن الإنسان يملك ماهية كما أنه يسعى لاكتشاف باقي الماهيات أو يجب على الإنسان أن نعكس في ماهيتنا الزجاجة وكأنها مرآة (هذا الذي تجلى في فلسفة ديمقريطيس وديكارت) من اعتبار بأنّ العالم هو مجموعة من الأشياء وبالتالي يجب على ماهيتنا الزجاجة أن توضح معرفتنا للطبيعة، هذه الأخيرة التي شكلت هاجسا بالنسبة للفلاسفة إذ أنّ هناك مشكلة هي 'الطبيعة' في مواجهة الإنسان هذا الذي تعرض له رورتي في كتابه "الفلسفة ومرآة الطبيعة".

المؤلف المرسل: فاطمة خديم fatima.khedim@univ-mosta.dz

*العنوان المهني والبريد الإلكتروني: جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم – مخبر الفلسفة والعلوم الإنسانية

. fatima.khedim@univ-mosta.dz

*العنوان المهني والبريد الإلكتروني جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم – مخبر الفلسفة والعلوم الإنسانية
miloudlarbi2003@yahoo.fr

واعتمدنا في هذه الورقة البحثية على المنهج الفلسفي التحليلي بغية تبيان موقف رورتي من نظرية المعرفة الذي يسعى إلى تفكيك التقليد الفلسفي. الكلمات المفتاحية: ريتشارد رورتي، النيوبراغماتية، ما بعد الحداثة، الإستمولوجيا، الإنسان المأروي.

Abstract:

In this article we will talk about Rorty's view to the theory of knowledge which can be considered in the decomposition of any philosophical tradition. Due to the link between philosophical thought and theory of knowledge, it became difficult to imagine philosophy away from epistemology: this is the picture that Cant presented of the western mind, i.e. there is no place for philosophy without the theory of knowledge, this is what the systemic philosophies imposed from the time of Plato until the emergence of philosophies (Cartesian, Kantian and Positional). The theory of knowledge refers to the existence of an essence for the human being, it's established by these philosophies and it believes that human has an essence and he seeks to discover the rest of the other essences. This is what was manifested in the philosophy of Democritus and Descartes from the view that the world is a collection of things and so our vitreous essence must clarify our knowledge of nature, the latter, which constituted an obsession for philosophers, as there is a problem which is "nature" in the face of human, this is what Rorty exposed in his book "philosophy and mirror of nature". In this article, we'll examine some of the justifications that Rorty provided to refute the theory of knowledge, as anyone can ask about it.

Key words: Richard Rorty, New pragmatism, Postmodernism, Epistemology, Mirror Person.

*** **

1. مقدمة:

أدت الظروف بعد الحربين العالميتين إلى تغيير مجرى الحياة الإنسانية رأساً على عقب الأمر الذي ولّد مختلف المذاهب والتيارات الفلسفية، بحيث نجد منها ما اهتم بالجانب الإنساني وهو ما حملته البراغماتية على غرار باقي الفلسفات الأخرى والتي تنوع طرحها الفلسفي لاسيما في جانبها النقدي، يعتبر ريتشارد رورتي (Richard Rorty) (2007/1931) من أهم الفلاسفة الأمريكيين بحيث عمل على توسيع دائرة البحث

الفلسفي في شقيه النيوبراغماتي والمابعد حداثي بحيث تشكل لدى الفلسفة وعي مدى الخطورة التي وقع فيها العقل الغربي وتمزق ثقافته، إذ كان لزاما على الخطاب الفلسفي المعاصر العمل على استرجاع الذات وتسخير العلم لخدمة الإنسان وتعزيز الأخلاقيات العامة وتحقيق التفاهم ك مطلب أولي بين الأمم والحضارات المختلفة وعلى هذا الأساس تم استحضار فلسفة رورتي واعتبارها بمثابة ثورة معرفية على نظرية المعرفة وعلى العقل الغربي في شكله العام إذ يرفض فيها كل أشكال التقليد الفلسفي من خلال التخلي عن فكرة 'الفلسفة كمرآة الطبيعة' التي سيطرت على التفكير الغربي إذن، كيف تجاوز رورتي سيطرت العقل الغربي على نظرية المعرفة؟ وما السبيل للخروج من هذا المأزق؟

2. فلسفة الذات ومولد الميتافيزيقا:

1.2 إشكالية الذات/الموضوع:

تعود عملية البحث عن أغوار النفس إلى الفلسفة اليونانية مع الفلسفة السقراطية حينما قال 'اعرف نفسك بنفسك' فهذه العبارة تشير مباشرة إلى 'النفس' ، أما بالنسبة للأفلاطونية فإن الذات مرتبطة بعالم المثل وهي عكس ما ذهب إليه أرسطو لأنها منفصلة عن الجسد وخالدة أي لا تفنى بفناء الأجساد كما أشار إليها أرسطو في تحديده لطبيعة الذات/الروح باعتبارها جوهر الأشياء،

وفي القرن السابع عشر وإعادة طرح إشكالية الذات ضمن مجال الفلسفة الحديثة من خلال ضبط التحديدات الأساسية لطبيعتها ودورها في التأسيس لنظرية المعرفة إذ تنبثق هذه الإشكالية مع روني ديكارت (René Descartes) الذي أعاد تشكيل المفهمة العامة للفلسفة بعدما شهدت الفلسفة انحطاط وتدهورا وعليه عمل ديكارت على إحياء روح البحث الفلسفي لكن على صيغة العقلانية المطلقة وتطورت على يد لوك وكانط، أما بالنسبة إلى الفلسفة المعاصرة فنجد بأنها حاولت إعادة النظر في إشكالية الذات وطرحها على مستوى القضايا اليومية للإنسان هذا ما حاولت البراغماتية تنبيهنا إليه عبر نماذجها الفلسفية (بيرس، جيمس/ وديوي) بالإضافة إلى رورتي وأسماء أخرى

ساهمت في غرس بذور العمل و"الأمل عوض المعرفة"¹ هذا الذي تميز به البراغماتيون الأمريكيون عن غيرهم من الفلاسفة.

إنّ النظر في طبيعة العلاقة لثنائية (الذات/الموضوع) (Subject/Object) في المعرفة تعد بمثابة المصدر الرئيسي للنظريات الفلسفية المعاصرة التي ثارت بدورها على نظرية المعرفة بادعائها المزعوم في القدرة على معرفة الطبيعة البشرية معرفة يقينية، الأمر الذي أفضى إلى تمزق الثقافة الغربية كمحاولة للخروج عن نظرية المعرفة في مختلف التيارات المعاصرة بفضل فلاسفة الارتباب إذ "هاجموا وهم وعي الذات. ويعد هذا الوهم ثمرة لأول نصر، كما يعد دحراً لوهم سابق: إنه وهم الشيء. ويعلم الفيلسوف الذي تربى في مدرسة ديكرت أن الأشياء مشكوك فيها، وأنها ليست كما يبدو. ولكنه لا يشك بأن الوعي ليس هو كما يبدو لذاته: إذ إن فيه يلتقي المعنى والوعي بالمعنى. منذ ماركس، ونيته، وفرويد نحن نشك بذلك. فبعد بالشيء، دخلنا في الشك بالوعي"² فالأزمة التي يعيشها الإنسان هي أزمة وعي، أزمة قيم أين تم الإعلان عن موت الإنسان، هذا الإنسان الذي طالما تغنى وتناول في الحديث عن قيمه ووجوده، ليجد نفسه محطماً وغريباً عن ذاته وعن مجتمعه، هنا يجب على الفلسفة إعادة تفعيل دور الإنسان، ولكن أي فلسفة؟ هي الأخرى التي خرجت هزيلة جراء التمخضات التي شهتها الثقافة الغربية.

هي دعوة إذن لتجاوز الميتافيزيقا الغربية ومن منظور هيغلي يجب على الفلسفة القيام ب"تمرد على الإغراق في النظر لبناء الأنساق، ودعوة إلى إقامة الشذرات والفتات الفلسفي"³ أو كما يدعوا ماركس "إلى مجاوزة الفلسفة كت تحقيق ذاتي تلغي الفلسفة بمقتضاه لتصبح معانقة الفلسفة للعالم عناق العالم للفلسفة وتحقيقاً لهاته"⁴ "إن رأس تحرر الإنسان هو الفلسفة، وقلبه هو البلوريتاريا. فالفلسفة لا يمكن أن تتحقق دون إلغاء البروليتاريا، وهذه لا تلغى دون تحقيق الفلسفة"⁵ هذا هو الحال الذي آلت إليه الفلسفة أين أصبحت تبحث عن تموقع لها ضمن الخطاب الفلسفي المعاصر بعد أن تاهت في العقلانية والذاتية والبحث عن الحقيقة المطلقة. "السمة التي طبعت الفلسفة بعد هيغل حيث لم يعد لها موضوع، وحيث أصبحت تنشغل بنفسها، وتعيد قراءة تاريخها بغية تجاوزه"⁶

وبالعودة إلى مكانة العقل البشري خلال الفلسفة الحديثة لأن الفلسفة الحديثة وبالضبط مع رونييه ديكرت تعتبر فترة التأسيس لفلسفة الذات بامتياز عبر تمثيل نظرية المعرفة والسعي وراء صياغة المبادئ العقلية المحضة باعتبارها مصدر الهام للسلطة، ضف إلى ذلك سيطرة الجانب التقني على الحياة البشرية والذي كان على حساب السعادة والحرية الإنسانية، وكما قال فرويد "ما يبده الإنسان يسهل تدميره، والعلم والتقنية للذات يشيد عليهما إبداعه يمكن أن يستخدم أيضا في تقويضه وتخريبه"⁷ إذن، يمكن إرجاع هذا الهم المعرفي إلى تهور الإنسان و"فرط استخدامه للتقنية مستنزفا استنزافا متسارعا للمقدرات الطبيعية، قد دفع بالعقل الغربي الراهن، إلى التفكير في محددات معيارية أخرى مغايرة لتلك التي نهض بها عقل الأنوار لعل في هذه المعايير إعادة جديدة لبناء أخلاقية، يكون في مقدورها رعاية الطبيعة حق رعايتها"⁸ وعلى الرغم من طرح الإشكال الأنواري ما الإنسان؟ إلا أن الفكر الفلسفي وما أنتجته عقلانية الحداثة قد فصل بدوره الإنسان كماهية عن العالم وظواهره المختلفة الأمر الذي أفضى بالفلسفة المعاصرة إلى إعادة البحث والتقصي في إشكاليات وقضايا راهنية تتماشى ومتطلبات العصر مثل طرح قضايا 'التواصل'، 'الببوايقا'، 'الاعتراف'، 'التعايش السلمي أو العيش معا'، مفهوم 'الإنسان'، 'التعددية' بعيدا عن الأنساق والصروح الفلسفية كالذاتية والعقلانية التقنية ومقولات التنوير الفلسفي طمعا في فك الظلال والأزمات التي سلبت منه إنسانيته.

إذن، يمكن اعتبار إشكالية الذات وريثة الفلسفة الديكارتية بمحاولته للتأسيس الذاتي المنهجي مروراً بعصر الأنوار أين تم تضخيم قيم العقلانية، لتحل هذه القيم التي تمسك بها العقل الغربي إلى غاية القرن التاسع عشر محل نقد وتقويض من قبل العقل الغربي، والعمل الذي تجلى بوضوح عند فلاسفة ما بعد الحداثة بفتح آفاق التأويل والتفسير أمام النشاطات الثقافية "انطلاقاً من التفكير على علوم الروح، سيطور علم التفسير متضامنته المضادة للميتافيزيقا وللخلط الإنساني (هنا تكمن قصة ما يصل بين هيدغر ودلتي)، فالمعنى الأصلي للجدل هو نمط 'دفاعي': إذا حق أن الأمر يتصل بالبحث، حتى في مجال العلوم الإنسانية عن دقة يمكنها تلبية متطلبات علم منهجي، لن يكون هذا إلا مقابل اعتراف بما هو فريد وممتنع على الاختزال عند الإنسان، وأن هذه النواة

الممتنعة على الاختزال ليست إلا الخط الإنساني في الموروث، المتمحور حول الحرية، وحرية الاختيار(....) أي تمحور حول تاريخيته التكوينية"⁹ وهي محاولة الفلاسفة للخروج من وعي الذات بدءا من نيتشه باعتباره تاريخ فلسفي حاسم في نمط الفكر الغربي

2.2 ما بعد الحداثة كمجازة للذاتية:

عَمِلَ ريتشارد رورتي على بعث البراغماتية ضمن النشاط الفلسفي المعاصر بحيث يلخص هدفه النيوبراغماتي في إعادة قراءة تاريخ الفلسفة الغربية ومشكلاتها التقليدية ولاسيما الإبستمولوجية منها نقدا وتفكيكا، والسعي إلى تقديم ثقافة الما بعد في مشروعه الفلسفي بحيث ينفي رورتي طبيعة المعرفة بوصفها تمثيلا دقيقا للعالم الخارجي وظواهره المختلفة هذا ما عمل على تقويضه في 'الفلسفة ومراة الطبيعة' 'philosophy and the mirror of nature' تحت تأثير كل من كواين سيلارز وكون أين أصبحت الابستمولوجيا لا مكان لها في الدراسات الفلسفية وأثبت هذا التوجه النقدي للأنساق الفلسفية الكبرى فلاسفة ما بعد الحداثة دولوز، فوكو، دريدا...بالإضافة إلى رورتي نفسه بحيث يقدم أنموذجا لطبيعة العقل الإنساني لن تقبل فيه فكرة اعتبار الفلسفة نظرية عامة في التمثيل وحتى الفلاسفة "لن يعودوا ينظرون بجدية إلى فكرة أنّ الفلسفة توفر 'الأسس' أو 'التسوية' لبقية الثقافة، أو أنها هي التي تقرّر الأقسام الصحيحة للأنظمة المعرفية الأخرى"¹⁰ فالصورة الكانتية للفلسفة النسقية لم تعد مقبولة في المشهد الفلسفي المابعد حداثي.

كان لكتاب جيانى فاتيمو (Giani vattimo) 'نهاية الحداثة' الدور البارز في الكشف عن الأنموذج الأوضح لثقافة ما بعد الحداثة وفي بحثه عن الطرق الفلسفية لاستعادة الذات الإنسانية ومحاولة تحريرها من الميتافيزيقا الغربية، كما نستحضر في هذا الموضوع فلسفة ادموند هوسرل (Edmund Husserl) (1938/1859) ومن خلال كتابه 'أزمة العلوم الإنسانية والفينومينولوجيا الترنسندنطالية' «the crisis of european sciences and transcendental phenomenology» والذي سيعمل فيه على تحرير الذات الإنسانية "من جدل حول المنهج (ميتودولوجي)، ليفرضها بالحدود الواقعية لمضمونها النظري: إنّ أزمة الخط الإنساني، من منظوره ترتبط بضيق الذات في الذاتية

الإنسانية في آليات (ميكانيزمات) الموضوعية العلمية، ومن بعدها الموضوعية التكنولوجية، لا نخرج من الأزمة العامة للحضارة التي تطورت بهذا الشكل إلا عبر استعادة الوظيفة المركزية للذات، والتي تستمر في الحقيقة دون أن يساورها أي شك في طبيعتها الخاصة"¹¹ لكن وعلى الرغم من محاولة هوسرل للتحرر من التصور الكلاسيكي لثنائية (الذات/الموضوع) إلا أنه وقع في الذات المتعالية الترنسندنتالية وعليه سيواصل هيدغر (Martin Heidegger) (1889/1976) عمل أستاذه ادموند هوسرل في تطبيق الفينومولوجيا كمحاولة للخروج عن نظرية المعرفة، هذا العمل الذي خصص له أهم مؤلفاته 'الكيونة والزمان' (Zein und Zeit) الصادر عام 1927.

فالوجود الإنساني "يدرك العلاقة بالتقية بشكل أساسي بوصفها تهديدا يرد عليه الفكر إما بوعي أكثر فأكثر وضوحا للسمات الخاصة التي تميز العالم الإنساني عن عالم الموضوعية العلمية، وإما بالسعي، على الصعيدين النظري والعملي (كما هو شأن الفكر الماركسي)، الإعداد لاستعادة الذات لمركزيتها"¹² على إثر هذا بوسعنا القول بأن وجودية هيدغر تعمل على إعادة طرح السؤال الوجودي (الدازين) الذي ظل منسيا كبديل عن الأنموذج المعرفي هيدغر ومن خلال حديثه "عن 'الدازين' فإنه لم يستبدل فقط مفاهيم الذاتية، والوعي الذاتي، والأنا المتعالية بكلمة جديدة تتمتع بقوة صادمة بأن يرفع من مقام الأفق الزماني للوجود الإنساني، ذلك الوجود الذي يعرف نفسه بأنه وجود متناه، إلى مقام مفهوم فلسفي، إنما هو أيضا تجاوز الفهم السائد في الميتافيزيقا الإغريقية للوجود. فلقد دلت المفاهيم الرئيسية للفلسفة الحديثة، مثل الوعي، الذات والموضوع، وكذلك المفاهيم المطابقة لها في الفكر التأملي دلت هذه المفاهيم على أنها بناءات دوغمائية"¹³ فهيدغر يسعى إلى تجاوز الذات المركزية من خلال المفاهيم الأساسية للفلسفة الحديثة والتي تعود بالأصل إلى الفلسفة اليونانية، فمثلا الذاتية في نظره هي امتداد للماهية الأرسطية.

"تبني نظرية المعرفة وضعها في تقدير وتفعيل نشاط الذات، فوضع الذات هو الحقيقة الأولى بالنسبة للفيلسوف، على الأقل بالنسبة لهذا التراث الواسع للفلسفة الحديثة التي بدأت من ديكارت وتطورت مع كانط، فيخته والتيار التأملي (...)، فبالنسبة لهذا التراث

(...)، وضع الذات هو حقيقة تعطى بذاتها، لا يمكن أن تكون مبرهنة ولا مستنبطة، إنها في الوقت نفسه وضع للكينونة ولل فعل معاً، وضع لوجود وعملية التفكير¹⁴ فالذات التي أسستها الفلسفة الحديثة هي الذات التي يتأسس عليها الوعي فنظرية المعرفة تقوم من خلال وضع الذات والتي تُجرى "على أساس الافتراض بأن جميع الإسهامات في كلام ما ممكن مقارنتها"¹⁵

"لقد ظهر أن مشكل الحقيقة ليس البنية المنطقية الداخلية لها ولا في توافق قوانين العقل مع قوانين الأشياء، أي أن مشكلها ليس إبستمولوجياً بقدر ما هو مشكل هيئة الوجود الذي تركز عليه، إذ أن نظرية المعرفة تعجز عن إظهار هذا الوجود لكثير من مواضعها ومنه فإنها معرضة لوهم المعرفة، ويرى سالنسكي (Salanskis) أن واجب الإجابة عن أسئلة مثل: ما هو اللانهائي؟ ما هو المستمر؟ والتي ظلت تقلق الرياضيين لأبي سنة، يتعلق بذات تستوطن وضعا هيرمنيوطيقياً"¹⁶ فحسب سالنسكي يجب إعادة صياغة المشكلات الإبستمولوجية صياغة هيرمنيوطيقية أي فتح المجال أمام لتأويل لأن الهيرمنيوطيقا وكما وظفها رورتي "تري العلاقات بين أشكال الخطاب الكلامي المختلفة مثل حبال مجدولة في محادثة ممكنة، محادثة تفترض عدم وجود مصفوفة نسقية تربط بين المتكلمين، وحيث الأمل في الاتفاق لا يُفقد ما فتئت المحادثة جارية. وهذا الأمل ليس أملاً في اكتشاف أرضية مشتركة قائمة وسابقة، وإنما هو أمل. ببساطة نقول: في الاتفاق، وهذا الأقل، أو في عدم اتفاق مثير ومثمر، غير أن الإبستمولوجيا ترى الأمل في الاتفاق علامة على وجود أرضية مشتركة قد لا يعرفها المتكلمون، وهي توحدهم في عقلانية مشتركة"¹⁷ عمل رورتي إلى جانب فلاسفة ما بعد الحداثة على توجيه الثقافة الغربية المعاصرة نحو أفق التأويل، فالهيرمنيوطيقا تجعل الإنسان يساير لغة الآخر لا محاولة الإمساك بها (الإبستمولوجيا)، فهي تستخرج البحث من الدائرة التجريدية وجعله مجرد محادثة عادية.

"الفكرة التي تفيد أن المعرفة تمثيل دقيق مالت، وبصورة طبيعية، إلى الفكرة التي تقول إن أنواعاً معينة من أشكال التمثيل والتعبير والعمليات هي 'أساسية'، و'مميزة'، و'تأسيسية' "¹⁸ وفيما يرى رورتي في تصور الفلسفة المأروية التي تقوم على نظرية المعرفة

والتي تنظر إلى أن الإنسان يمتلك جوهر مادي وعليه فهذا الطرح الفلسفي يتطلب هجرانا.

إن النظر إلى الفلسفة باعتبارها التمثيل الدقيق وجعلها نظرية عامة لها أسس عقلية التي تحددت في القرن 17 و 18 مع ديكارت ولوك وكانط كان لزاما على الفلاسفة أمثال فتغنشتاين، هيدغر وديوي الذين حاولوا التخلص من نظرية المعرفة التي تتأسس على العقلانية المطلقة فيجب أن يعيدوا طرح إشكالية 'نظرية المعرفة' لا التخلي عنها كما يقول رورتي لأن التخلي عن الشيء هو عدم الاهتمام به بل يجب أن 'نبرهن ضد' حتى يتم بناء الفلسفة من جديد.

واجهت البراغماتية مجموعة من المزاغم المعرفية التقليدية في ما يتعلق بطبيعة الإنسان وعليه كانت الإشكالية "هي أننا نحاول أن نضع جانبا صورة الإنسان التي تصوره بأنه حائز على ماهية زجاجية، مناسبة لتصوير الطبيعة بيد، بينما نتمسك بها باليد الأخرى"¹⁹ كما كان مسعى رورتي متجليا في فكرة 'الإنسان المرآوي' إذ أن النشاط الإنساني كان يختزل في معرفة الجواهر فالإنسان جوهر مهمته اكتشاف الجواهر الأخرى، وعليه فإن فيلسوف البراغماتية الجديدة حاول التخلص أولا من فكرة الإنسان المرآوي مستلهما من وجودية سارتر الذي رفض هو الآخر طبيعة التحديد الميتافيزيقي للإنسان فجوهر الإنسان حسب سارتر هو "أن يكون بدون جوهر" ورفض كل تحديد جوهرى مرتبط بجوهر خارجي عن الوجود الإنساني، وهذا الوجود الإنساني لا يملك أي طبيعة ميتافيزيقية* خارجة عنه وتتحكم فيه أي "لا توجد طبيعة إنسانية مطلقة"²⁰ كما صورها لها القرنين 17 و 18 فالبيئة الإجتماعية هي التي تحدد طبيعة الإنسان تحت مبدأ التأثير والتأثر فالوجود هنا يسبق الماهية. هذا ويقدم لنا سارتر مرآة الطبيعة عدم القدرة على تمثيل (اللغة / الفكر) للعالم الخارجي وظواهره المختلفة "ولم يتردد رورتي في اعتبار الإنسان كائن لغوي متبعًا خطى أرسو وغدامير في أن البعد اللغوي في التجربة الإنسانية يكتسي أهمية كبرى ويختزل الإنسان إلى مجرد كائن ألسني ناطق"²¹

3. من الإستمولوجيا إلى الهيرمنيوطيقا:

1.3 في نقد الإستمولوجيا:

تشير الإستمولوجيا (Epistemology) إلى الفلسفة النسقية (Systemic Philosophy) أو ما يعرف بالفلسفة التأسيسية وهي الفلسفة التي تضرب بجذورها إلى الفلسفة اليونانية مروراً بالفلسفة الحديثة إلى غاية الانغلاق التام للروح مع هيغل، إذ تصب هذه الفلسفات في قالب القدرة على معرفة الطبيعة الإنسانية، إذن على أي أساس تم نقد الإستمولوجيا، وما هي النظريات التي ساهمت في ذلك؟

بدأ رورتي في مناقشته للمسائل الإستمولوجيا بدراسته لبنية العقل وعلاقته (بالعالم الخارجي وظواهره المختلفة، التمثيل، الأفكار) ومن فكرة مفادها أن العقل هو مرآة للطبيعة ولقد سعى رورتي في كتابه 'الفلسفة ومرآة الطبيعة' إلى تفويض الإستمولوجيا تحت تأثير كل من سيلارس وكواين في نقدهما للإستمولوجيا التقليدية، ولذا نهنا رورتي على ضرورة استبدال الإشكال المعرفي التقليدي هل نحن نمثل العالم الخارجي أحسن تمثيل؟ من هذا المنطلق قام رورتي بإعادة قراءة تاريخ الفلسفة الغربية التي تنطوي ضمن نظرية المعرفة 'كمرآة للطبيعة' (Knowledge as a Mirror of Nature) منذ أفلاطون وحاول التخلص من المشكلات الفلسفية التقليدية التي أصيب بها كل من العقل البشري باعتبار الفلسفة نظرية عامة في التمثيل وفكرة التطابق لتي أصبحت لصيقة بمقولة الحقيقة، مستلهما هذا النقد من المثالية في محاولة تجاوز هذا الفكر الذي تسرب إلينا من الفكر الأفلاطوني الديكارتي والكانتي.

الانزياح عن "مفاهيم ميتافيزيقية كالمطلق، الطبيعة الإنسانية المشتركة، الماهية، الحقيقة. هذه المفاهيم في اعتقاد رورتي لم يصف الاهتمام بها أي شيء إلى المجهود المبذول بل إنها عرقلت مسار البحث الفلسفي وقادته إلى وجهات لم تثمر"²² هذا من جهة و"بطبيعة الحال فإنّ البراغماتي يصرح بأنّ نظريته حقيقية بالمعنى البراغماتي للحقيقة، إنها تعمل، وتزيل الصعوبات، وتنزع الغموض، إنها تضع الأفراد في علاقات أكثر تجريبية، وأقل دغماطيقية وأقل ريبية بشكل تعسفي مع الحياة، إنها تؤيد الفلسفة بالطريقة التجريبية، إنها تعمل على غزالة المشكلات التي اصطنعتها الإستمولوجيا، إنها توضح وتعيد تنظيم النظرية المنطقية... إلخ"²³

يطرح رورتي إشكالية المعرفة (The Problematic of Knowledge) باعتبارها نظاما معرفيا في الفلسفة الغربية والتي أسس لها أفلاطون بالتشديد على الصرامة العقلية وكما قال لن يدخل أكاديمتي من ليس رياضيا وامتدت إلى الفلسفة الحديثة أين تجلت في العقلانية (Rationality) والتأملية والذاتية (Subjectivity) وبحيث "ظلت المعرفة تُتصور بأنها تمثيل مضبوط كمرآة للطبيعة"²⁴ وقد ذهب سقراط قبل ديكارت وكانط إلى اعتبار أن العقل علة كل شيء، هذا ويستعين رورتي حول هذه الإشكالية بمقالة لوالاس ماتسون (Wallace Matson) في طرحه لإشكالية العقل/الجسد والتي جاءت بعنوان «Why Is not the Mind-Body Problem Ancient ?» ويجب بقوله "لم يفتقر اليونانيون لتصور العقل، وحتى لتصور للعقل المنفصل عن الجسد. غير أن الخلط الواصل بين العقل والجسد منذ هوميروس إلى أرسطو، كان إذا رُسم يُرسم بحيث توضع عمليات الإدراك الحسي في جانب الجسد" من هذا المنطلق يحدد لنا ماتسون السبب في عدم حضور إشكالية الجسد-العقل في الفلسفة اليونانية نظرا لصعوبة الترجمة المفاهيمية مثل جملة "ما علاقة الحسّ بالعقل أو النفس"²⁵ مفاد هذا القول الماتسوني (ماتسون) عدم القدرة على فصل حالات الوعي عن الواقع أي صعوبة الفصل بين العالم الداخلي والخارجي.

وعليه جاءت الفلسفة الحديثة لتوظف الفكر على يد ديكارت حينما اشتمل الفكر على الشيء الذي "يشك، ويُدرَك، ويتذهن، ويُثبت، ويُنفى، ويُريد، ويرفض، ويتخيل أيضا، ويُحس".²⁶ فديكارت قد أعطى لكلمة 'فكرة' معنى جديد من خلال وصفه للحالات العقلية الإنسانية في تاريخ الفكر الفلسفي والذي سيستمد منها لوك.

ومن خلال القراءة التي تقدم بها رورتي حول تاريخ الفلسفة الغربية أفضى إلى نجاعة العلوم الحديثة (غاليلو، نيوتن، أنشتاين ...) حسب ما يراه كل من ديكارت وكانط لأنّ وظيفة الفلسفة انحصرت في المهمة التأسيسية أي محاولة معرفة الإنسان الذي يسعى إلى تقديم التبرير لكل المزايم الإبستمولوجية، هذا الذي تعرض له رورتي في كتابه 'الفلسفة ومرآة الطبيعة' وبالعودة إلى الفلسفة اليونانية والتأسيس الفعلي للإبستمولوجيا نجد بأن سقراط هو أول من أرسى دعائم الإبستمولوجيا لأنّ العقل

هو علة كل شيء هذا ماورد على لسان سقراط في محاوره (فيدون) "ولكنني سمعت ذات يوم أحدا يقرأ في كتاب مؤلفه، كما قال أنكساجوراس، وفيه يقول إنه العقل منظم كل شيء وعلة كل شيء. ولقد انشروحت لفكرة هذه العلة، وبدا لي أنه من الحسن، على وجه ما، أن يكون العقل هو علة كل الأشياء"²⁷ عمل رورتي على تنظيف الفلسفة الغربية من اعتبار فكرة المعرفة مرآة للطبيعة أي ضرورة التخلي عن الاستمولوجيا التقليدية خاصة في شقها التأسيسي والتمثيلي، هذا وقد ساهم نيتشه مساهمة فعلية وفريدة في انهيار السرمديات الكبرى للعقل الغربي من وجهة نظر رورتي "فقد انتقد نيتشه عبادة العقل التي تدور على توهم أن العقل قادر على معرفة الحقيقة والوجود، في حين أن المنطق وهو من نتاج العقل وهم ومبادئ العقل هي من اختراعاته، ثم يزعم إنها قوانين الوجود. ولذا ليس ثمة ركائز يمكن تبريرها عقليا، ولكن ثمة وجهات نظر. والطبيعة تضيق من مساحة وجهة النظر ومن ثم تتقلص مساحة الحرية"²⁸ تكمن محاولة نيتشه بالنسبة إلى رورتي في خلع القناع عن أكبر مشروع فلسفي في تاريخ الفلسفة الغربية ألا وهو المشروع الحدائي باعتباره وهم وزيف الأنواريين، لذا يلح نيتشه على ضرورة إعادة النظر في راهنية القضايا الإنسانية وقيمة الحياة اليومية وهو المنطلق البراغماتي الذي يتفق فيه نيتشه مع سائر البراغماتيين في تأسيس الأخلاق 'Moral' والحقيقة 'Truth' وهذا ما نجده عند التفكيكية إذ "يلصق دريدا بالبراغماتيين الأمريكيين والجميع بنيتشه، يعود إلى النزعة القائلة أن الفكر واللغة ليسا محاولات للإيصال بالواقع، بل محاولات لإيجاد المزيد من الطرق الخيالية لوصف الواقع"²⁹ وفي مناهضة التقليد الفلسفي من منطلق أن "الفلسفة التقليدية هي اعتبار العقل كمرآة كبيرة تشمل أشكال تمثيل مختلفة"³⁰

وتجلى هذا الهدف في عصر ما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي باعتباره أحد فلاسفتها الذين دعوا إلى ضرورة التخلص من العقلانية الديكارتية لأن أصل البراغماتية في بحثها عن الحقيقة هو الفائدة العملية، "وليس إدراك الواقع كما هو على الشكل اليقيني، أو النسبي أو المثالي (...)" وليس إيجاد نظام فلسفي معرفي تمثيلي هدفه إثبات، أو إبطال مزاعم معرفية تُشكل تمثيلات للواقع"³¹ وكما يقول رورتي نحن البراغماتيون

"نسب المعتقدات إلى الأشياء التي تستخدم، أو يمكن تخيلها لاستخدام الجمل، ولكن ليس إلى الصخور والنباتات"³²

ومن هنا كان مسعى رورتي لرفض الحقيقة ونقده للإبستمولوجيا انطلاقاً من "اختزال الإنسان في ملكة واحدة أساسية هي ملكة العقل"³³ يصبح فيها العقل بمثابة مرآة للطبيعة لتصبح المعرفة شكل من أشكال التمثيل تتشكل من خلال العقل، هذا الذي ميز الفلسفة الحديثة والموضع الذي أثار غضب فلاسفة ما بعد الحداثة. فالفلسفة التقليدية حسب رورتي ظلت حبيسة باعتبار العقل مرآة تمثيل للعالم الخارجي، مع ديكرت وكانط وفي ظل الفلسفة المرآوية فإن الإنسان "يفقد إنسانيته كما تفقد المرأة المجلوة مرآيتها عندما تذوب في الشيء الذي تعكسه"³⁴ وهنا يلتقي الفكر الرورتي بفلسفة سارتر في المبدأ الذي يبنى عليه الفكر الغربي في اعتبار المصورة البصرية كمرآة ومفاد هذا القول أن كلما كانت مرآة الطبيعة زجاجية كلما فقد العقل الإنساني مرآيته بالتطابق والتماهي الحاصل بين ثنائية العقل والطبيعة، وعليه عمل رورتي جاهداً على تصفية الفكر الغربي من الشوائب التي باتت لصيقة بالفلسفة.

مما سبق يبدو أن هذا هو السياق للخلفية الفكرية والفلسفية الذي دفع برورتي إلى دحض الفلسفات التأسيسية (نظرية المعرفة التي تضرب بجذورها إلى الفكر الأفلاطوني) "وعندما تُصقّى عقائد سلازل وكواين، فإنها ستبدو كتعايير متكاملة لزعم وحيد، وهو: لا يستطيع 'وصف لطبيعة المعرفة' أن يعتمد على نظرية أشكال تمثيلية يكون لها علاقات مميزة تجاه الواقع. لقد مكّنا عمل هذين الفيلسوفين أخيراً، وبعد زمن طويل، من حلّ خلط لوك بين الشرح والتسويق، وتوضيح لماذا يمكن 'لوصف لطبيعة المعرفة' أن يكون في الحدّ الأقصى وصفاً للسلوك الإنساني"³⁵

2.3 المحادثة:

يشدد رورتي على 'المحادثة' 'Conversation' بغية تعزيز روح النقاش 'Debate' والحوار 'Dialogue' بين أفراد المجتمع الغربي بينما "وفي الوقت الذي كان يأمل فيه أفلاطون بل وأيضاً كانط إلى معاينة المجتمع والثقافة التي كانا يعيشان في كنفها من خلال نقطة استشراف خارجية أي نقطة استشراف حقيقية ثابتة وحتمية فإن الفلاسفة المتأخرين أخذوا بالتدرّج في التخلي عن هذه الآمال"³⁶ نجد الجهود المكثفة

لدولوز روتي ودريدا لتفكيك تصور التقليد الفلسفي وتجاوز الفهم الأفلاطوني والكانطي المزدوج باعتبار الفلسفة "فن تكوين وإبداع، وصنع المفاهيم"³⁷ يقترح روتي المحادثة بدلا من التعمق في إشكاليات نظرية المعرفة وكما عبر عنها غادامير في مؤلفه العمدة 'الحقيقة والمنهج بقوله "هي عملية لبلوغ فهم ما... ينفتح فيها كل طرف على الآخر، ويقبل حقا بوجهة نظره كوجهة نظر صحيحة، ويحول نفسه إلى الآخر إلى المدى الذي لا يفهم فيه فردية هذا الآخر الخاصة، بل ما يقوله."³⁸ والمحادثة البشرية التي يقترحها روتي تهدف إلى هدم صورة مرآة الطبيعة وذلك بالتخلي عن أنموذج للفلسفة التقليدية وأسسها برعاية خاصة من الهيرمنيوطيقا، وحول العلاقة التي تربط الهيرمنيوطيقا بالإبستمولوجيا يقول روتي في كتابه 'الفلسفة ومرآة الطبيعة' "لا أقدم الهيرمنيوطيقا 'كموضوع خلف'، للإبستمولوجيا، وكنشاط يملأ الفراغ الثقافي الذي ولّدته، مرة، الفلسفة التي تركزت في الإبستمولوجيا."³⁹ وهي إجابة عن السؤال الذي طرح على روتي نفسه حول إمكانية استبدال الحقل الإبستمولوجي بالحقل الهيرمنيوطيقي ليحسم بالنفي القاطع في هذا الموضوع.

بعد مناقشة قضايا الإبستمولوجيا في الفلسفة المعاصرة ومن زاوية البراغماتي الجديد يصل روتي إلى نتيجة تفيد بأن "صورة الفلسفة كمهنة في المذهب الكُنْتي الجديد هي صورة "العقل" أو "اللغة" كمرآة للطبيعة، لذا يبدو أن المذهب السلوكي الإبستمولوجي والرفض الحاصل لصورة المرأة يؤديان إلى الرأي الذي يفيد بأنه لا يمكن وجود مثل هذه المهنة أو يجب عدم وجودها"⁴⁰ "غير أن روتي لا ينفي مهمة الفلسفة بعد زوال فلاسفتها، لأن وكما يرى روتي تدريس الفلسفة سبب كافٍ لبقاء المهن المختلفة للفلسفة، لكن ما أكد عليه روتي هو أن "الفلاسفة أنفسهم لن يعودوا ينظرون بجدية إلى فكرة أن الفلسفة توفر 'الأسس' أو 'التسوية' لبقية الثقافة أو أنها هي التي تقرر الأقسام الصحيحة للأنظمة المعرفية الأخرى"⁴¹

كشف لنا روتي في مشروعه الفلسفي عن مضامين الفلسفة الحديثة وتداعياتها الفكرية في تزييف بنية العقل الغربي من خلال اعتماد آلية التفكيك كخطوة أساسية لتجاوز الفلسفة التقليدية بحيث نظر روتي إلى الإبستمولوجيا نظرة تختلف عن سائر

الفلاسفة والذي يطلق عليهم اسم (النسقيين) وذلك بانتفاضته على التراث الفلسفي وتبرأه منه والذي تجلى في تدمير كل الأسس المثالية للمباحث الفلسفية الكبرى فعمل رورتي يندرج كإضافة نوعية وخاصة للبحث الفلسفي هذا الذي ساهم في إحياء البراغماتية من جديد وإعادة بعث نشاطها في المشهد الفلسفي، وقد اعتمد في ذلك على التصور النيتشوي في نقده للأسس وللمركزيات الغربية والتفكيك الديريدي كإستراتيجية لفلسفة ما بعد الحداثة.

4. خاتمة:

مما سبق نستخلص بأنّ النيوبراغماتية شكلت منعطفا حاسما في تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر بقيادة ريتشارد رورتي بحيث تَوَصَّل فيها ومن خلال مناقشته للقضايا الابستمولوجية إلى نتيجة مفادها بأن التمسك بالإبستمولوجيا هو التمسك بالتقييد الفكري الدوغمائي لأن الفكر الفلسفي في هذه الحالة مقيد بالأسس الثابتة عن الماهية والحقيقة، فلا وجود لفكرة الماهية والإنسان ممثلا لها، ولا الحقيقة هي براديغم العقل الغربي، وعليه دعى رورتي إلى ضرورة التحرر من أغلال الإبستمولوجيا الكلاسيكية كما أنه يجب علينا ملء الفراغ الذي خلفته، متجاوزا بذلك كل تقليد فلسفي فنحن في هذه المرحلة بحاجة إلى تهذيب أنفسنا أكثر من الاهتمام بالبراديغمات المسوغة.

أين تلتقي وجهة نظر رورتي بفيلسوف التأويلية غادامير من خلال الدعوة إلى فكرة 'المحادثة' وفتح المجال للحديث عن الديمقراطيات الغربية وتأسيس الوعي الذاتي للممارسات الاجتماعية لمختلف النشاطات الإنسانية أين تجلت الهيرومنوطيقا كإحدى تعبيراتها العملية على الحياة البشرية.

5. الهوامش:

*** **

1 Rorty Richard, *Lespoir au lieu du savoir: Introduction au pragmatisme*, édition française établie par Claudine Cowan et Jaques Poulain, Paris édition Albin Michel, 1995, p 13.

2 ريكور بول، صراع التأويلات 'دراسات هيرمنيوطيقية'، تر: منذر عياشي، مراجعة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، إفريقيا، 2005، ص ص 191 192.

3 عبد السلام بن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر 'مجازة الميتافيزيقا'، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1991، ص 12.

4 المرجع نفسه، ص 12.

5 المرجع نفسه، ص 13.

6 المرجع نفسه، ص 82.

7 فرويد سيغموند، مستقبل الوهم، تر: جورج طرابيشي، ط3، دار الطليعة، لبنان، ص 09.

نورة بوحناش، الاجتهاد وجدل الحداثة، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2016، ص 149

9 فاتيمو جيانى ، نهاية الحداثة 'الفلسفات العدمية والتفسيرية في ثقافة ما بعد الحداثة (1987)'، تر: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص ص 41 40.

10 رورتي ريتشارد، الفلسفة و المرأة الطبيعة، تر: حيدر حاج اسماعيل، مراجعة: ربيع شلهوب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص 512.

11 فاتيمو جيانى ، نهاية الحداثة، مرجع سابق، ص 41.

12 المرجع نفسه، ص 42.

13 غادامير هانز جورج، طرق هيدغر، تر: حسن ناظم حلي حاكم صالح، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2007، ص 266.

14 الناصر عمار ، اللغة والتأويل، مقاربات في الهيرمنيوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الفارابي، منشورات الاختلاف، بيروت، بيروت، الجزائر، ط1، 2007، ص 13.

15 رورتي ريتشارد، الفلسفة و المرأة الطبيعة، مصدر سابق، ص 420.

عمارة الناصر، اللغة والتأويل، مقاربات في الهيرمنيوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص 14 15.

- 17 رورتي ريتشارد، الفلسفة ومراة الطبيعة، مصدر سابق، ص 422.
- 18 المصدر نفسه، ص 423.
- 19 المصدر نفسه، 192.
- * الطبيعة الميتافيزيقية التي عرفت بالروح في الفلسفة الأفلاطونية، والعقل عند الأنواريين فالفلسفة أصبحت تهتم بالمشكلات الإبيستمولوجية وانزاحت عن الهدف الذي رسمته الفلسفة اليونانية والمتمثل في معرفة الإنسان، وهذه النقطة بالتحديد تعرضت لهجوم من قبل الفلاسفة ما بعد حداثيين من بينهم رورتي الذي جاء لتقويض الفلسفة التأسيسية.
- 20 سارتر جان بول، الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني، الدار المصرية، القاهرة، ط1، 1964، ص 81.
- 21 محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، 'فصول في الفكر الغربي المعاصر'، منشورات ضفاف، كلمة، دار الأمان، منشورات الاختلاف، بيروت، تونس، الرباط، الجزائر، ط1، 2015، ص 199.
- 22 محمد جديدي، الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط1، 2008، ص 245.
- 23 رورتي ريتشارد، ديوي بين هيغل وداروين، تر: محمد جديدي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، ص 11.
- 24 رورتي ريتشارد، الفلسفة ومراة الطبيعة، مصدر سابق، 247.
- 25 المصدر نفسه، ص 102.
- 26 المصدر نفسه، ص 102.
- 27 أفلاطون، فيدون، (في خلود النفس)، تر: عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 2001، ص 193.
- 28 هابرماس يورغن، القول الفلسفي للحداثة، تر: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995، ص 89.
- 29 رورتي ريتشارد، ملاحظات فلسفية، تر: محمد عبد النبي، ضمن: مجلة العرب والفكر العالمي، العددان 23 و24، 2008، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص 92.
- 30 رورتي ريتشارد، الفلسفة ومراة الطبيعة، مصدر سابق، ص 61.
- 31 كمال لزيق، مراتب المعرفة وهرم الوجود عند ملا صدرا دراسة مقارنة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، (د.ط.)، (د.ت.)، ص 341.
- 32 Rorty Richard, *Philosophy and Social Hope*, Penguin Books, First Published, 1999, p xxiv.

- 33 عطيات أبو السعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 2002، ص 132.
- 34 عبد المنعم البري، نهاية الفلسفة النسقية في نظر رورتي، أوراق فلسفية، مجلة غير دورية علمية محكمة، مصر، العدد الخامس والعشرون، 2009، ص 101.
- 35 روروي ريتشارد، الفلسفة ومرآة الطبيعة، مصدر سابق، ص 261.
- 36 رورتي ريتشارد، الفلسفة والمستقبل، تر: مشروحي الذهبي، أوراق فلسفية، مجلة غير دورية علمية محكمة، مصر، العدد الخامس والعشرون، 2009، ص 89.
- 37 دلو زجبل و غتاري فيليكس، ما هي الفلسفة، تر: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1997، ص 28.
- 38 غادامير هانز جورج ، الحقيقة والمنهج، (الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)، تر: حسن ناظم، علي حاكم صالح، دارأويا، طرابلس، ط1، 2007، ص 507.
- 39 رورتي ريتشارد، الفلسفة ومرآة الطبيعة، مصدر سابق، ص 419.
- 40 المصدر نفسه، ص 511 512.
- 41 المصدر نفسه، ص 512.